شفيق مقار

عود الى سولجنتسين

« لكل شعب ، اذن ، آلهته ، وانصاف آلهته ، وابطاله ..»
(الماركيز د صاد :
(تأملات في الفن الروائي)

اخطاء من الجانبين :

ولد الكسندر ايزاييفيتش سولجنتسين في شهر ديسمبر من عام ١٩١٨ ، في بلدة ريفية صغيرة باقوفاز . وقد ولد يتيما ، لان اباه مات في حادث قبل مولده بستة اشهر ، وولد فقيرا ، لان ذلك الاب كان من فقراء الطبقة المتوسطة الدنيا ، وقد حاول في صدر شبابه ان يدرس فقه اللغة بجامعة موسكو ، ليصبح مهنيا ، ويطفو الى السطح قليلا ، لكن ظروفه المادية المعاكسة لم تمكنه من ذلك .

قامت على تربية الصبي اليكسيي امه ، مستعينة براتب ضئيل من عملها ككاتبة اختزال وطابعة على الالة . ولم تكن حياة الروس ميسرة في تلك السنوات الشجاعة العجفاء التي اعقبت قيام الثورة، وذاق خلالها عامة الناس ـ الذين يحملون دائما عبء التجربة ـ طعم المجاعة .

وقد ولد سولجنتسين موهوبا . فرغم ما ذاقه وامه من مرارة العيش ، اظهر نبوغا مبكرا في دراسته ، وتفوقا على اقرانه ، وحصل ـ بعد تخرجه من جامعة روستوف بدرجة في الرياضيات ـ على منحة دراسية حملت ـ دون سائر خلق الله ـ اسم ستالين ، اعطيت له ليواصل دراساته العليا في الفيزياء والرياضيات . وكان ذلك بدء سلسلة اخطاء من الجانبين من المؤكد ان العواقب التي ترتبت عليها لم تصل الى ذروتها بعد .

* * *

وقبل ان نذهب الى ابعد من هذا ، نتوقف لحظة ، ونسأل انفسنا : ما هي المشكلة فيما يخص هذا الصدام ، الذي تجاوبت اصداؤه في اركان العالم الاربعة ، بين سولجنتسين والنظام السوفيتي؟

المشكلة ـ فيما نراه ـ مشكلة صدام بين رؤية مثالية ،من جانب الكاتب ، تصدر عن تصور لماينبغي ان يكون ، ومسار واقعي، يلتزمه النظام ، يقوم على ايمان بأن الغاية (عالم الاجيال القادمة الذي سيتحقق فيه الفردوس الارضي ، بعد فترة عبور بالمطهر ، طويلة واليمة نعم لكنها موقوتة تبعا لما تقوله النصوص المعتمدة) ان تلك الغاية تبرر كل الوسائل ، وتتطلب الحفاظ على ما هو كائن .

وسولجنتسين واع تماما بصفة الواقعيةهذه في خصومه . فهو يقول لهم :« .. وانا (اذ اقول لكم كل هذا) لا انسى لحظة انكم واقعيون تماما ،بل ان ادراك تلك الحقيقة كان المنطلق الاساسي لرسالتي كلها اليكم ، فقد كتبتها وأنا مدرك تماما انكم الواقعيون الذين ما بعدهم واقعية ..» (١)

لدينا ، اذن ، ذلك الوضع الذي بات تقليديا بالنسبة لدور الفكر والفن في الثقافات المتقدمة (الم يكن وضع فولتير وكثيرين قبله وبعده ؟) ، وهو وضع تحدد بصورة اكثر عمقا واشد اتضاحا في هذا القرن العشرين الرهيب : وضع الصدام مواجهة بين قوتين : الفنان والنظام . والفنان قد لا تكون لديه اسلحة غير قلمه او فرشاته ، وبالتأكيد ليست لديه قوات امن غير صفحاته او لوحاته ، لكنه يمكن الا يكون شاعر مديح او شاعر رثاء ، يمكن ان يكون قوة مدمرة للخصم هو ايضا .

وفي ساحة ذلك الصراع تستميت كل قوة من القوتين في فرض ارادتها ، والمحافظة على بقائها : (« أنا اعلم جيدا انكم لن تدعوا السلطة تتسرب من بين اصابعكم ابدا » (٢) ، وهي تفعل ذلك اما باخضاع القوة المناوئة وتطويعها ، واما بالقضاء عليها والتخلص منها. هذا ما فعله النظام السوفييتي ، او ظل يحاول فعله ، طيلة عقد بأكمله : حاول ان يخضع سولجنتسين ويطوعه ، بمحاولة استقطابه واستيعابه (في ظل خروشتشوف) تارة ، وبالتشهير والارهاب (بعد سقوط خروشتشوف) تارة اخرى . وهو ، ايضا ، عين ما فعله سولجنتسين : حاول ان يخضع النظام السوفيتي لفكره ورؤيته ، او يقضي عليه . ويخطيء من يتصور ان ذلك صراع قد بلغ منتهاه بطرد سولجنتسين وتشريده في بلدان اوروبا الغربية ، فهو لم يكد يبدأ. ومعذرة ان بدا هذا الكلام ،وهو يكتب بالعربية ، غريبا بعيد المأخذ، لكنه يكتب عن اناس يعيشون ويتعاملون ، وعن اشياء تجري ،في عالم اخر . فلنتصور ان كاتبا يمكن الا يحول قلمه الى بوق او منشفة، او يحول نفسه الى مطية ، فيسبيل ان يخوض مثلهذا الصراع المهلك. وان استعصى علينا ذلك التصور ، بحكم الاعتياد ، فلنلق بسمعنا الى الكاتب :

« ومن غير الكاتب يمكن ان يوجه اللوم والمؤاخذة الى الزعماء الناقصين الذين لا يصلحون لعملهم ، بل والى المجتمع كله لما يتصف

---

(١) الكسندر سولجنتسين : « رسالة الى زعماء الاتحاد السوفييتي» ، ص ٥٠ .
(٢) « رسالة ..» ، ص ٥٠ .

به المجتمع من جبن وخنوع واذلال للنفس وضعف مستكين ؟ ورب سائل يسألنا : وما الذي يستطيعه الادب في وجه الشراسة الضارية التي لا ترحم للعنف السافر ؟ لكننا لا يجب ان ننسى ان العنف لا يمكن ان يتواجد بذاته ، منفردا ، ولا يستطيع البقاء منعزلا ، فهو لاصق ، بلا فكاك او مهرب ، بالاكذوبة » .(٣)

(والمقتل الذي يوجه اليه الكاتب قلمه هو تلك الاكذوبة)

ثم لنلق بسمعنا الى النظام نفسه :

« هاجم الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف يوم امس الكتاب والمثقفين المنشقين الذين ينتقدون النظام السوفيتي .

وكان الزعيم السوفيتي يتحدث في مؤتمر للشباب الشيوعي عقد بموسكو ، ورغم انه لم يذكر الكاتب الروسي سولجنتسين الذي طرد في نهر فبراير الماضي ، تحديدا ، بالاسم ، فقد كان من الواضح ان كل ما قاله انصب اساسا ، وبطريقة مباشرة ، على ذلك الكاتب. وقد استخدم الرفيق بريجنيف لفظة « المرتد » التي اطلقت على سولجنتسين ابان الحملة الصحفية الطويلة التي سبقت طرده .. وقال الزعيم السوفيتي ان اناسا من هذا النوع حاولوا من قبل ان ينحرفوا بالثقافة السوفيتية عن مسارها المعتمد رسميا لكنهم باءوا دائما بالفشل . وفشلت المحاولات العديدة التي تعرض لها الادب السوفيتي وسائر الفنون وجهد اصحابها في تضليل تلك الفنون وابعادها عن الحياة واجتثاثها من المثل العليا للمجتمع السوفيتي . وقال مسيو بريجنيف ان كل هؤلاء المرتدين والضالين من ابناء الوطن السوفيتي لا يفعلون — بمحاولاتهم هذه المقضي عليها بالفشل — الا ترديد ما يقوله اعداء الاتحاد السوفيتي الطبقيون والايديولوجيون ، لكن التربة السوفيتية غير صالحة لنمو مثل هذه الحشائش الضارة » (٤).

في مثل هذا الصراع (واهمية سولجنتسين ماثلة — اساسا — في انه ، لظروف تاريخية وثقافية بعينها ، جسده حيا على الطبيعة، ربما كما لم يجسده كاتب من قبل) تكون للاخطاء التي ترتكبها القوتان المتصارعتان عواقب خطيرة وبعيدة المدى بالنسبة لكليهما وللساحة التي يدور فيها الصراع .

وكل ما نرجوه ، قبل ان ناخذ في تتبع تلك الاخطاء ، الا يتصور القارىء اننا نسخر او نتهكم ، ونؤكد له اننا نعني ، بمنتهى الجدية، كل كلمة ، في محاولتنا النظر بواقعية الى ذلك الصراع والقوتين المشتبكتين فيه ، بشيء من البرود يبدو لنا انه ما من سبيل غيره الى مثل ذلك النظر ، حتى لا نخطىء الفهم .

ونحن قد نختلف مع سولجنتسين (وقد اختلفنا)، ونذهب في خلافنا معه الى اخر المدى ، لكننا لا نختلف بحال حول اهميته ،وجدية ما يقول ، ومدى الصدق الذي توخاه في كل ما قال ، والاهم من ذلك، حول حقه (بل واجبه ؟) في ان يعلن تلك الافكار ويجهر بها، وربما يموت دفاعا عنها ، ما دام مؤمنا بها .

هذه مشكلة الكاتب ، اي كاتب . وقد يكون مخطئا في بعض او كل ما يؤمن به ويقوله ، لكن كل ما عليه هو ان يجاهر به ، بصدق ، بغير تحريف ، او اخفاء ، او اضافة ، او سوء نية . واذ ذاك يكشف نفسه تماما . يعترف . يقف عاريا معرضا للانظار وللسهام والحراب من حيثما أتت ، بغير استسلام ، بغير استشهاد ، وبغير تسلق لاي صليب مهما صغر ، مقاتلا بضراوة ،حتى النهاية . ومن حق الكل ان يناقشوه ويعارضوه ويكشفوا جنونه او اخطاءه ، لكن ليس من حق احد ان يضع كمامة على فمه . وقد يقنع الكاتب العصر ، وبعده كل العصور، بانه رأى وجها من اوجه الحقيقة ، وتكلم بالصدق ، وقد يفحم العصر الكاتب ، ويلقمه حجرا ، فيسكت ، ويموت ، ويندثر ذكره . لكن ذلك شيء تفعله العصور ولا تقدر عليه مكاتب الحكومة وقوات الشرطة .

اما مشكلة النظام ، اي نظام ، فهي ان النظم مهما تألهت وادعت القداسة والعصمة من الخطأ ستجد دائما في طريقها تلك الضمائر والعقول المستنيرة المعارضة التي ترى أبعد وترى رؤية مختلفة ، وتكتشف اخطاء ، وتكشفها . وليس امام النظام آنئذ الا ان يزيح تلك الضمائر والعقول من طريقه ، او — وذلك من وجهة نظر الامن والنظام افضل — يمنع تواجدها اصلا ،او يسلم بانه لا مهرب من وجودها ، ولا مهرب من التعامل معها . والنظم ، بعد كل شيء، تعبير موضوعي عن ارادات ورؤى فردية وعقول فردية مفروض انها تفكر هي الاخرى وبوسعها ان تتعامل مع عقول اخرى حتى وان كانت تلك العقول تعبر عن ارادات معارضة ورؤى مغايرة .

لكن هذا كله كلام مثالي ، وليس معمولا به . فمن واقع ممارسة كل النظم ، لا النظام السوفيتي وحده لكي نكون عادلين ، لا يوجد في عالمنا نظام يقبل حكومة سولجنتسين المنافسة ،اي يقبل بذلك التسليم بوجود ارادات ورؤى اخرى ويرضى بالتعامل معها بالعقل والمنطق لا بالسوط او بالمسدس . والتعامي الكلي الذي تلجأ اليه الصحافة الغربية في تناولها لمشكلة سولجنتسين وغيره من المنشقين السوفيت لما يغيظ حقا . فتلك الصحافة ،حتى الليبرالية واليسارية منها تعرض القضية كما لو كانت فيلما من افلام رعاة البقر تجري احداثه بين الاخيار (الكتاب المنشقين) والاشرار (النظام السوفيتي)، وتقف — بطبيعة الحال — في جانب الاخيار وتهلل لهم ،وهي تعلم تماما انها لا تتفق لما يفعلونه بل لما يمثلونه بالنسبة للمصالح التي تعبر عنها ، وانها تستغل صراعهم مع النظام السوفيتي في التشهير بذلك النظام ، متناسية ان كل ما هنالك من اوجه تباين او خلاف واختلاف بين المؤسسة السوفيتية ، والمؤسسة الاميركية ، او الفرنسية ، او البريطانية ، فيما يخص مشكلة الكاتب الذي يعتبر نفسه حكومة منافسة هذه ، ليست الا اختلافا في الدرجة ، وبالذات في درجة التظاهر بالتفوق بمثل الانفتاح والتحضر والحرية والديموقراطية . ولا ننسى اننا نعيش في عصر من اعتى العصور كلبية ، عصر ارتكبت افظع جرائمه وما زالت وراء ستار « صوت الشعب من صوت الله » ، وباسم « الشعب مصدر السلطات » . ولقد فطن سولجنتسين الى كل هذا في موقف الصحافة الغربية منه بعد ايام قليلة من اقامته في الغرب ، فثار ثورة عاتية ، واتهم تلك الصحافة بانها اسوأ من البوليس السري السوفيتي، فردت عليه بعض الصحف مذكرة اياه بانه لولا الضجة التي اثارتها حوله لما كان قد نجا من براثن ذلك البوليس السري الذي يشبهها به .

فلنكن واقعيين اذن ، وننظر الى المشكلة من وجهة نظر الامن والنظام . ولسوف يتضح لنا ، متى فعلنا ذلك ، جسامة الخطأ الذي تتردى فيه النظم الحاكمة اذ تتيح للمتفوقين من محكوميها فرصة الاستزادة من العلم . فلو كان النظام الستاليني قد تخلص من سولجنتسين مبكرا ، بدلا من ان يمنحه منحة ليواصل تعليمه ، لكان قد اراح واستراح . ومن يدري . قد يكون في تدبر هذه الاخطاء عبرة للانظمة اليقظة فتتبع على ضوئها سياسة الوقاية خير من العلاج. والمسألة ليست صعبة . فهناك — في متناول اليد — كشوف العلم وتطبيقاته ، وهناك الالاف من المحكومين المطيعين الخبراء والمتخصصين الذين يسعدهم ان يستخدموا تلك الكشوف والتطبيقات في خدمة القانون والامن والنظام . وقد اجريت مؤخرا دراسة علمية على اعداد كبيرة من الناس من مختلف الفئات فتبين ان الطاعة وتنفيذ ما تطلبه السلطة من المحركات الاساسية لسلوكهم ،وان السواد الاعظم منهم لا يتردد في ارتكاب اعمال القتل او التعذيب متى كان ذلك في خدمة

(٣) سولجنتسين ، « خطبة نوبل » ، ص ٢٦ .

(٤) صحيفة الديلي تلجراف ، وسائر الصحف الانجليزية ، لمراسليها بموسكو .

السلطة (★) . فما ضر ان يوجه كل ذلك لاستخدام ادوات كأداة الاختبارات النفسية ، واختبارات الذكاء ، والميول ، والاستعدادات ، في الكشف مبكرا عن « جانحي المستقبل » من كتاب وعلماء وفلاسفة ومفكرين وفنانين ، والتخلص منهم ، او – بعبارة معاصرة – تصفيتهم ، قبل ان يستفحل شرهم ؟ لو كان النظام الستاليني قد فعل ذلك ، هل كانت تصبح لدينا مشكلة مزعجة عالية الصوت اسمها سولجنتسين، واخرى اسمها زخاروف ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ؟ والمشكلة ان اولئك الناس لا يسكتون ، وتصعب عادة تصفيتهم ، بعد ان تعرف اسماؤهم ، في هدوء (وان كانوا يتهمون – حيثما تسنى ذلك – بالجنون ، وانفصام الشخصية ، ويتم ايداعهم في « التبريد العميق » بمصحات الامراض العقلية ، او يختفون ، بغير ضجيج ، كما حدث قبلا لسولجنتسين ، في معسكرات السخرة والمعتقلات) وذلك بدلا من ان تضطر الانظمة الى الدخول معهم في صراعات مكشوفة . وبهذه الطريقة (ترك هؤلاء الناس ليصبحوا كتابا ثم مطاردتهم) كم في عالم اليوم من كتاب مشردين خارج اوطانهم ؟ افلا يكون الاسلم والاجدى ان يجتثوا ، بحل جذري ، اولا بأول ، مبكرا ، قبل ان يصبحوا صداعا مقيما ، او خطرا على الامن والنظام ، او مصدرا لبلبلة الافكار واشاعة الفرقة بين الصفوف ؟

أخطأ النظام الستاليني اذن ، فبدلا من التخلص من سولجنتسين، أعطاه منحة ليواصل تعليمه . ولننظر ما حدث . يقول الكاتب :« كنت قد اكتشفت ، اثناء دراستي بجامعة روستوف ، ان لدي استعدادا غير عادي للتفوق في الرياضيات . غير اني – بالرغم مما اكتشفته من سهولة تلك الدراسة بالنسبة الي – لم أجد في نفسي الرغبة في ان اتفرغ لها . ومع ذلك ، فقد لعبت الرياضيات دورا خيرا في حياتي وانقذتني من الموت مرتين على الاقل . فمما لا شك فيه اني لم اكن لاتمكن من البقاء على قيد الحياة طيلة السنوات التي قضيتها في المعتقلات لو لم اكن ، بوصفي متخصصا في الرياضيات ، قد نقلت الى مكتب ما ، تابع لمعسكرات السخرة ، قضيت تحت سقفه اربع سنوات، ثم بعد ذلك ، اثناء سني المنفى ، سُمح لي ان اقوم بتدريس الفيزياء والرياضيات (في مدرسة ابتدائية بجمهورية كازاخستان الاسيوية)، مما جعل حياتي محتملة بعض الشيء ، واتاح لي ان اكتب ».(٥)

وهكذا يترتب خطأ على خطأ . المنحة الدراسية ، اولا ، ثم ، بفضل ما تعلمه في ظل تلك المنحة ، ينقل الى مكتب تابع لمعسكرات السخرة ، فينجو .

وليت ذلك اسوأ ما في الامر . فقد اغتنم سولجنتسين فرصة تلك المنحة الدراسية ، وانتسب الى معهد موسكو للفلسفة ،والتاريخ، والاداب ، واتم دراسته فيه بالمراسلة ، وتخرج منه في اواخر عام ١٩٤١ . ولحسن حظه ، وسوء حظ النظام ، كانت دراسته الادبية هذه مسألة متوارية في الظل ، لم تسترع انتباه احد ، والا لكانت الامور ساءت بالنسبة اليه كثيرا . ولهذا يقول ان دراسة الرياضيات كانت نعمة مزدوجة ، فبجانب ما هيأته له من معاملة مميزة في معسكرات السخرة ، مكنته من الابقاء على الجانب الادبي من حياته في الخفاء: « لانني لو كنت قد انتظمت في دراسة ادبية لكان من غير المحتمل ان اخرج من تلك المحن (المعتقل والمنفى) حيا ، ولكنت ، منذ البداية، قد تعرضت لاضطهاد اشد وانكى » (٦) فهو واع تماما بتلك المهالك المتربصة بأولئك الذين « يرون ما يرون انه حق ، ويكتبون بالصدق » ، كما وصفهم قسطنطين بوتوفسكي .

تزوج سولجنتسين من زميله له في الدراسة ، واشتغل بالتعليم، فعمل مدرسا للرياضيات باحدى المدارس الثانوية بروستوف . ثم – وقد رتب شئون حياته – بدأ ينصرف للكتابة . ومنذ طفولته كان ذلك توقه : ان يصبح كاتبا . « حتى وانا طفل ، بغير دفع من أحد ، كنت اريد ان اصبح كاتبا . وبالفعل ،اخرج قلمي كمية لا يستهان بها من كتابات مرحلة ما قبل النضج المألوفة . وفي الثلاثينيات حاولت ان اجد من ينشر لي بعض ما كنت اكتب ، فلم اجد احدا يقبل مخطوطاتي » .(٧)

وفي الاربعينيات ايضا رفضت كتاباته . ويبدو ان روح التمرد والمناوأة والرغبة في تحطيم النمط السائد كانت كلها ناطقة في كتاباته منذ ذلك الوقت ، لان بيروقراطي الادب قسطنطين فيدين الذي رفض نشر اي شيء له في الاربعينيات كان هو هو الذي رفض نشر روايته العظيمة « عنبر السرطان » في السبعينيات . فالجدارة الادبية لم تكن المحك في رفض كتاباته الاولى ، يشهد بذلك رفض اعماله في سني النضج ،وهي اعمال لا خلاف على جدارتها .

بعد زواجه بقليل ، دخلت روسيا الحرب ، بعد ان نقض هتلر معاهدة عدم الاعتداء التي كان ستالين قد عقدها معه ، واجتاحت جحافله النازية حدود الاتحاد السوفيتي . وتقدم سولجنتسين ليخدم بلاده . وفي بداية الحرب ، كما يخبرنا هو ،« عين سائقا لعربة تجرها الخيول » . وظل يقوم بذلك العمل طيلة شتاء ١٩٤١ – ١٩٤٢، غير انه نقل بعد ذلك « بسبب معارفه الرياضية » الى حيث انتظم في دراسة بمدرسة المدفعية اتمها بنجاح في نوفمبر من عام ١٩٤٢، فعين قائدا لوحدة مدفعية ، وترسم بذلك خطى ابيه الذي خدم – متطوعا – كضابط مدفعية في الحرب العالمية الاولى . ويبدو من سجل خدمته انه كان جنديا ممتازا . فقد منح وسام الوطن من الطبقة الثانية ، ووسام النجم الاحمر الذي لا يمنح الا لمن يقومون باعمال عسكرية ممتازة ، ثم رقي الى رتبة نقيب . وتبعا لما جاء في تقرير اللجنة التي شكلت – بعد موت ستالين – لرد اعتباره ، اتضح انه اشترك في القتال ، طوال سني الحرب ، على جبهات متعددة ،من عام ١٩٤٢ ، حتى القاء القبض عليه في عام ١٩٤٥ ،« وقاتل بشجاعة، دفاعا عن ارض الوطن ،واستنفر حمية وولاء كل من خدم تحت امرته، وفي اكثر من مناسبة قام باعمال بطولية ، كما ان وحدته كانت من خيرة الوحدات انضباطا وكفاءة قتالية » (٨) .

غير ان ذلك كله لم يجده شيئا . فقد القي القبض عليه ، وحوكم غيابيا ، لا يدري احد لمَ ، وهو مقبوض عليه ، ووجد مدانا بجرائم رهيبة ، فتقرر ان يلقى به في غياهب معسكرات العمل لمدة ثماني سنوات طوال . ويقول الكاتب ان ذلك الحكم – بمقاييس ذلك العهد –كان رحيما .

فما هي الجريمة التي ارتكبها سولجنتسين ؟ انتقد ستالين . ولم ينتقده علنا ، بل خفية ، في مكاتبات شخصية كان يتبادلها مع صديق من اصدقاء الدراسة ، ودون ذكر اسمه .

وكان ذلك اول خطأ ارتكبه سولجنتسين . لانه كان يجب ان يكون اعقل من ذلك . وبالحقيقة ، ما جدوى مثل تلك الافعال المجانية؟ ما الذي يمكن ان يحققه انتقاد حاكم كهذا ، خفية ، في حديث

(★) Stanley Milgram : « Obedience to authority . An Exprimental View » - Tavistock .

(٥) سولجنتسين : نبذة عن سيرته الذاتية – مؤسسة نوبل ١٩٧١، وقد وردت ضمن المرجع السابق الاشارة اليه : سولجنتسين ،سجل وثائقي ، لندن ١٩٧٢ ، ص ٢٥ .

(٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٨) المرجع نفسه ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

خاص ، أو يوميات ، او رسالة ؟ وقد تمثل خطأ سولجنتسين الاول هذا في انه لم يفطن الى حقيقة الطرف الاخر مبكرا ، ولم يفطن كنتيجة لذلك ـ الى قواعد اللعبة .

ونتيجة لذلك ، فانه تورط بجهالة ، وارتكب تلك الخطيئة المميتة : خطيئة العيب في الذات الالهية ، ذات الزعيم القائد والراس الكبير . ذلك مرض انساني قديم لا حدود لقبائله لا ندري كيف ظل الناس مبتلين به ، ومتى ؟ في القرن العشرين . نعم ، ان عامة البشر كانوا دائما في حاجة الى وثن ما ، حيوان خرافي او هولة ما ، يعبدونها، ويشعرون بالرعب منها ، وتشبع فيهم حاجة مريضة الى مثل تلك العبادة وذلك الرعب ، ويتعصبون لها ، بل ويموتون من اجلها، ويدعونها تمحقهم وتقتلهم . لكن غيبيات العصر الوسيط وسحريات الديانات البدائية شيء ، والوهات القرن العشرين الارضية شيء اخر . وان يظل الانسان يكرر في مهزليات نظمه السياسية ، نظاما بعد نظام ، دراما الخليقة الأولى كما جسدها في اساطيره ، وعصيان الخليقة للخالق، والطرد من الفردوس ، لما يحار فيه العقل . نعم ان الزعيم القائد والراس الكبير يغتصب ـ في مهزليات النظم السياسية المعاصرة ـ صفة الاله ، بطرق لولبية ولئيمة يجعلها ممكنة شبق البشر الى من يعذبهم ويمحقهم ، ويسبغ على رعاياه صفة الخليقة التي من صنع يديه ، في ظل انقلاب كلي تقوم فيه الدولة بدور كهنوت العصر الوسيط ، فتمتلك لحساب الاله الزعيم القائد المتربع على قمتها (سواء كان فردا فريدا ، او ثالوثا أو تاسوعا) ارواح الرعايا وعقولهم وابدانهم ، وحق أحيائهم واماتتهم ، نعم ذلك يحدث كل يوم ، حتى ليبدو التعجب له من قبيل العبث ، بينما العبث ذاته ان يظل ذلك يتكرر ويتواصل ويترسخ.

يقول سولجنتسين : « القي القبض علي استنادا الى ما وجدته الرقابة في مكاتبات كنت اتبادلها خلال عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ مع صديق من اصدقاء الدراسة ، من عبارات تفتقر الى الاحترام الواجب لشخص ستالين ، رغم اننا لم نذكره بالاسم ، بل اشرنا اليه بالفاظ غامضة. وكدليل اضافي على التهمة ، استخدمته السلطات مسودات قصص وافكار كنت قد كتبتها ووجدت في الحقيبة التي كنت احمل فيها خرائطي . غير ان ذلك لم يكن كافيا ، فيما يبدو ، لاقامة الدعوى ضدي ومواجهتي بها ، ولذا فاني حوكمت وصدر الحكم ضدي غيابيا في يوليو من عام ١٩٤٥ » (٩) . وبعد ذلك قضى ثماني سنوات في « معسكرات الاصلاح » بسيبيريا ، وثلاث سنوات منفيا في جنوب جمهورية كازاخستان الاسيوية السوفيتية ، تبين قرب نهايتها انه كان مصابا بسرطان في المعدة ظل معه ، بغير شك ـ طوال مدة اعتقاله في معسكرات العمل بسيبيريا ، وقد يكون اصيب به هناك ، ولم يعالج منه بعد عملية جراحية غير ناجحة اجريت له في كازاخستان ، فترك ليصل الى مرحلة خطيرة . يقول سولجنتسين :« وفي اواخر عام ١٩٥٣ كنت قد اصبحت على شفا الموت ، فلم اعد استطيع ان آكل أو انام ، فوق ما كنت اعانيه من تاثير السموم التي كان يفرزها ذلك الورم الخبيث . وفي النهاية سمحوا بارسالي الى طشقند حيث عولجت وشفيت ، عام ١٩٥٤ » (١٠) والذي يغلب على الظن انه لولا موت ستالين لما كان الكاتب قد عولج في طشقند او في غيرها .

وماذا عن الكتابة اثناء سني المعتقل والمنفى ؟ يقول الكاتب :« كنت طيلة سني المنفى اقوم بتدريس الرياضة والفيزياء في مدرسة ابتدائية. وطوال تلك السنوات الشاقة الشقية التي قضيتها في وحدة مطبقة، كنت اكتب النثر سرا (ففي المعتقل لم اكن مستطيعا الا ان اقرض بعض الشعر ولا اسجله بالكتابة بل اختزنه في الذاكرة). وقد توصلت

(٩) المرجع السابق ، ص ص ٢٥ – ٢٦ .

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٦ .

الى الاحتفاظ بكل ما كتبت ، واخذته معي ، فيما بعد ، عندما عدت الى الجزء الاوروبي من بلادي ، حيث واصلت تظاهري بالتفرغ تماما للتدريس ، مكرسا نفسي للكتابة في الخفاء . وطوال تلك السنين، حتى سنة ١٩٦١ ، لم اكن قد ايقنت فحسب من اني لن ارى كلمة مما كتبت مطبوعة في حياتي ، بل كنت لا اجرؤ على اطلاع احد من معارفي الاقربين على شيء مما كتبت خشية ان يؤدي ذلك الى ذيوع الامر . وكان اقسى ما في تلك المحنة اني لم اكن مستطيعا ، بتلك الطريقة، ان اقف على رأي احد من القادرين على الحكم الادبي فيما كنت اكتب » (١١) .

* * *

غير ان الكاتب كان يقيم حساباته وهو غير دار باتجاه الريح في دهاليز السلطة، غير مدرك ان بلاده كانت مقبلة على مرحلة مما وصفه الكاتب الانجليزي جورج أرول ، قبل ذلك بربع قرن ، في نبوءة ١٩٨٤. فقد عاد سولجنتسين من سنوات المعتقل والمنفى والاتحاد السوفيتي على اعتاب انقلاب منذا الذي كان يتصوره .واثر عودته بقليل ، القى خرشتشوف خطبته السرية التي اعلن فيها بدء الهجوم على ستالين. وكما يحدث في رواية أرول ، اعيدت كتابة التاريخ من جديد ، اعدم التاريخ الذي كان قد كتب قبلا ، ووضع مكانه تاريخ جديد . فانقلب كل شيء رأسا على عقب ، واله الامس ، الاب العظيم ، الراس الكبير، مسخت صورته ، او كشفت اقنعته ، فاسفر لعبيده عن وجه شيطان خسيس رجيم . وذلك ، هو الاخر ، امر يتكرر كل يوم . ولقد تبين وقتها ، فجاة ، بلا سابق انذار ، ان ستالين كان طاغية ، وظالما ، ووحشا ، ومجنونا ، وجبارا ، واخرج من قبره ، فالقي خارج الأسوار ودخلت مزرعته ، الاتحاد السوفيتي ، عهدا جديدا زاهرا من الاصلاح، والحرية ، وسيادة القانون ، والانفتاح، والخير العميم .

والذي يجعل عملية تغيير ديكورات النظم هذه ممكنة ومجزية لاصحابها ، المرة تلو المرة ، في كل زمان ومكان ، ان الناس ، تحت تاثير كلبية العصر التي تشكلهم ، وتحورهم ، وتصوغ تفكيرهم ، عودوا عقولهم (ان كانت قد ظلت لهم عقول) على الوقوف عند حدود المسميات والتصنيفات كما لو كانت حدودا نهائية لا مجرد بطاقات تلصق ويسهل تغييرها . بمعنى انك عندما تقول اليوم النظام الستاليني ، او الهتلري ، تفعل ذلك كما لو كانت تلك الاشياء كوابيس رديئة مرت وانتهت ، وصحونا جميعا من فظاعتها ، بينما واقع الامر ان نظاما مما في عالم اليوم ، لم ولن يقصر ابدا عن استيعاب الركام المتزايد من خبرات ، وتجارب ، واقتحامات كل ما سبقه وكل ما يعاصره من أنظمة ، يأخذها ، فيطورها ، ويطبقها، ويفيد منها خير فائدة ، وربما ـ في بعض الاحيان يصبغها بصبغة محلية او آنية تتطلبها الضرورة ، فالمادية ومعاملة الناس كما لو كانوا قطعا من اثاث (كما يصف خرشتشوف معاملة ستالين للناس) يمكن ان تطور ، ببساطة ، وتجدد ، وتحسن ، فيضاف اليها الانفتاح وما اليه ، كما يمكن ان تحل محلها الروحانية الغيبية ، في اماكن اخرى من العالم ـ او ـ وذلك افضل ـ خليط تحار فيه العقول من الروحانية الغيبية ، والسحريات البدائية ، والمادية الوضعية . تماما كما ان العنصرية الآرية ، التي كانت دعامة فكرية ومنطلقا اساسيا للهتلرية ، يمكن ببساطة ايضا ان تحل محلها العنصرية الجديدة القائمة على الانجاز الحضاري (ممثلا في التقدم التقني) بدلا من الدم والسلالة ، وما احلى ان يكون ما يحل محلها خليطا من معيار الانجاز الحضاري ، ومقولة التفوق اللازم للدم والسلالة ، وبعضا من الشوفينية التي ينادي بها سولجنتسين الان . فتغيير الديكورات ،في خاتمة المطاف ، ليس حكرا على احد ، ولا يعني الا ان الشخوص

(١١) المرجع السابق، ص ٢٧ .

تغيرت ، والاقنعة تجددت وتحسنت ، ووراء كل تجدد وتغيير يظل محترفو الولاء ، مرتزقة القوة ، المنتفعون ، كلاب الحراسة ، هم هم لا يتغيرون ، وان تغيرت اسماؤهم احيانا وانقلبت سحنهم .

ولننظر ما حدث لصاحبنا سولجنتسين .

* * *

حدث ان القائمين بالتغيير على مسرح الحياة السياسية آنئذ وجدوا وثيقة مكتوبة بصنعة جيدة يمكن ان تخدم اغراضهم ،وصاحبها كاتب مسكين ، مغمور ،خارج من المعتقل،عائد من المنفى لتوه . فاولئك الناس ليسوا حمقى ، وليسوا بغافلين . انهم ـ مهما بدوا متعالين متباعدين غير عابئين باحلام ومثاليات ذوي الاحلام والمثل ـ يعرفون جيدا ما يمكن ان تفعله قصة ، او رواية ، او قصيدة شعر ، او لوحة. واليوم يطرد سولجنتسين ، كما يشرد الكتاب والفنانون من كل انحاء العالم ، لان القوى المناوئة ، التي في الجانب الاخر من الساحة ، تعرف تلك الحقيقة وتعيها جيدا .

غير ان الضرورات تبرر المحظورات ، كما يقولون . وقد كان الوضع مقلوبا في ذلك الوقت من عام ١٩٥٦ ،في اعقاب المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي : فلم يكن الصراع مع كاتب او فنان ،بل كان مع وثن . في ذلك الوقت كانت قوة صاعدة لم ترسخ اقدامها في اروقة الحكم بعد تحاول مستميتة ان تتسنم ذرى السلطة ، ويقف في طريقها ذلك الصنم الذي كانت قد شاركت في صنعه بحكم ادوارها السابقة في دهاليز السلطة : صنم الزعيم القائد الرأس الكبيريوسف ستالين . وبينما تلك الفئة ـ التي ربما كانت وقتها مذعورة بعض الشيء من عظم ما كانت مقدمة عليه ، ومن شدة ذعرها مستيئسة ـ بينما تلك الفئة تضرب بايديها ، هنا وهناك ، باحثة عن معول آخر تستعين به في هدم ذلك الصنم الصلد الذي ، من كثرة ما عجن به من اكاذيب شاركت في صنعها ،بات عصيا على الهدم ، عثرت فجأة على معول اسمه ايفان دنيزوفيتش ، شخصية روائية خلقها كاتب منزو ، ملوث (*) ، مثخن بالجراح ، يدعى سولجنتسين .

وهكذا فانه ، في ٦ فبراير من عام ١٩٥٦ ، عقدت المحكمة العليا بالاتحاد السوفيتي جلسة خاصة كرست باكملها للنظر في الاعتراض المقدم من المدعي العام العسكري (ويا للعجب) على قرار المجلس الخاص للبوليس السري الصادر ضد المدعو سولجنتسين الكسندرايزاييفيتش، المولود عام ١٩١٨ ، والمتعلم تعليما عاليا ،تطبيقا للمادة ٥٨ فقرة ١٠ والمادة ٥٨ فقرة ١١ من قانون العقوبات .

وهذا ما اكتشفته تلك المحكمة العليا ، بعد ١١ عاما من ادانة الكاتب وتعذيبه في معتقلات سيبيريا : تبينت المحكمة ان المدعو سولجنتسين كان ، قبل القبض عليه ، يشغل منصب قائد بطارية مدفعية ، وبهذه الصفة اشترك في الحرب ضد الجيوش الفاشية النازية وابلى بلاء حسنا في الذود عن حياض الوطن ، ومنح وسامين منهما وسام النجم الاحمر .

كما تبينت المحكمة ان التهمة التي وجهت اليه انه في المدة من عام ١٩٤٠ وحتى تاريخ القبض عليه ، قام بدعاية معادية للنظام السوفيتي واتخاذ خطوات لانشاء منظمة معادية لذلك النظام .

وفي اعتراضه المقدم الى المحكمة يطالب المدعي العام العسكري (ويا للعجب) الغاء قرار المجلس الخاص السابق الاشارة اليه ،وشطب القضية ضد المذكور لعدم قيام دليل على ارتكابه ما نسب اليه . وقد حكمت المحكمة بذلك .

وكان ذلك خطأ آخر فادحا من اخطاء النظام (بصرف النظر عن اشخاصه) اذ اعترف النظام علانية ،(وتلك نقطة تحسب للخصم)، ان حياة انسان وسمعته وكرامته الانسانية يمكن اغتيالها بورقة كما يمكن ردها بورقة ، واعترف ايضا بان اساليبه ينسحب عليها وصف الابتزاز وتلفيق الجرائم ، تبعا لحكم الضرورة ، وهو ما سوف يعبر عنه سولجنتسين فيما بعد ، على لسان احد البيروقراطيين العاملين في جهاز المعتقلات في عمله المدوي الاخير : « ارخبيل المعتقلات » .

لكن المهم ان الرجل برئت ساحته من التهمة الشنعاء التي شارفت الخيانة ، ورد اعتباره ، فبات انسانا من جديد ، وبات من الممكن ان تنشر كتبه ، وذلك بيت القصيد .

ولا نعني ان رغبة حرى انتابت السلطة وجعلت السادة المسئولين على احر من الجمر شوقا الى جعل تلك الكتب في متناول الناس ، بل نعني ان ذلك كان تحركا اخر ، كغيره ، في لعبة السلطة ، نقلة شطرنج جانبية صغيرة اخرى ، على الرقعة التي ما بعدها رقعة ، التي يتقرر على سطحها من سيقتل من ، ومن ستجري ازاحته وتصفيته من طريق من حتى يتربع هذا الاخير ،بعض الوقت ، ريثما يأتي من يزيحه او يقتله ماديا او معنويا ، ويقعد مكانه مرتاحا ، ممسكا بيده زمام الحياة والموت ، ومفاتيح النعيم والجحيم للملايين البكماء البلهاءالتي تتصور ان لها في تلك اللعبة دورا غير دور السائمة التي تساق وتذبح وتساط ، فتنحاز لهذا الجانب او ذاك ، وتتحمس ، وتتفلسف ، وتعطي ولاءها،وتلغو بافكار واقوال تتصور انها من افراز عقولها الجدبة، ولا تدري انها تلقن اياها في كل لحظة من لحظات صحوها ، وكقطعان السائمة تستدير وتركل بعضها بعضا ، وتغدر ببعضها البعض ،وتبلغ، وتشي ، وتشهد بالزور كما يقول سولجنتسين ، وتكره من يكرهون معذبيها ، وتنشب انيابها في لحم من يحاولون ان يربكوا خطى جلاديها .

* * *

منذ البداية كان محتوما ان يقع الصدام ، وتكون القطيعة . فصاحبنا سولجنتسين وخصومه اشبه بسكان كوكبين مختلفين ،او قل مجموعتين شمسيتين يفصل ما بينهما الفضاء العميق .

لقد بلغ من جنون الرجل ان وجه رسالة ـ بعث بها بصفة شخصية ـ الى زعماء بلاده ليقول لهم كيف ينبغي ان يحكموا ويسوسوا، طالبا اليهم العودة الى رحاب الدين ، واطلاق الحريات الى حد معين (فهو لا يقر الحرية السائبة غير المنضبطة) والافراج عن المعتقلين ، ومعاملة الناس بالتي هي احسن . والادهى من ذلك كله انه يطلب منهم فصل الدين (الماركسية) عن الدولة . فهو داخل معهم في معركة اصلاح ديني كتلك التي مرت بها اوروبا في طريقها الى عصر النهضة .

والمسألة ان سولجنتسين يرى ان الفرد (الروسي والاوكراني ، وليس غيره) كائن له قيمة ، يتمتع بحق لا حقّ لاحد في حرمانه منه: حق اساسي في ان يقضي حياته بطريقة غير مشوهة وغير مكذوبة .وهو رجل عنيد ، لديه مجموعة من القيم الاخلاقية الاساسية يرى ان الحياة لا تستقيم بدونها .

اما من يتصدى لهم ويعارضهم ، فينظرون الى الامور نظرة واقعية،

(*) (ملوث) سياسيا ،بطبيعة الحال . فالرجل لم يسرق من احد ولم يشرع في قتل احد ،وكل جريمته انه فكر وعبر عن رأيه . وحسبما جاء في تقرير لجنة رد الاعتبار : انحصرت الادلة (التي قضى الكاتب بفضلها احد عشر عاما في المعتقلات والمنفى كما لو كان من عتاة المجرمين) في انه ، في رسائله الى صديق له يدعى ن.د. فيكيفيتش ، وفي يوميات كان يحررها لنفسه ، درج ـ رغم انه امتدح دائما صحة الماركسية اللينينية ، وقرظ باستمرار تقدمية الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ، وقرر حتمية انتصار تلك الثورة في العالم اجمع، واكد ايمانه ـ درج رغم ذلك على الحديث عن شخص ستالين بلهجة تفتقر الى الاحترام ، وكتب عن النقائص الفنية والايديولوجية التي تعيب اعمال كثيرين من المؤلفين السوفيت ، وانتقد الجو غير الواقعي الذي يسود الكثير من تلك الاعمال ، كما كتب ايضا في رسائله ويومياته تلك ان اعمالنا الفنية تقصر دون اعطاء القارئ في العالم البورجوازي فكرة شاملة ..الخ.

ببساطة ، وبغير كل تلك التعقيدات والشطحات المثالية . فهم اناس لا اوهام لديهم عن الناس ، يدركون ان الفرد الانساني (في روسيا واوكرانيا كما في غيرهما) كائن عضوي اساسا ، يريد أن يجد كفايته من الطعام والدفء وقدرا معقولا من الطمانينة حتى وان كان ثمن ذلك كله الاستسلام الكامل والتنازل عن كل ما يميزه عن القردة ، ويعرفون ايضا انه مخلوق معقد ومرتبك (من كثرة ما حط عليه من بلايا) يخاف ويتالم ، ويموت شوقا الى يد قوية تقوده وتخضعه وتوجهه وتسوسه، فيلعقها . وانه ، ذلك الفرد ، بغير ذلك كله ، سواء كان ذلك بمحض رغبته واختياره او لم يكن ، حري بأن يشطح وان ينطح ويخل بنظام الاشياء . ويعرفون ايضا ، اولئك الذين ينازلهم الكاتب ، انالندرة منشأ القيمة (فهم اناس درجوا على النظرة الاقتصادية الموضوعية الى الامور) ويدركون ان كثرة الناس الكثيرة جعلت قيمتهم قليلة، ان لم تكن قدجعلتهم،في ظروف بعينها ، عديمي القيمة ، وانه اذا مات منهم مليون او اثنان ،او سجنت بضعة ملايين ، سيحل محل كل مليون يموت او يسجن مليونان او اكثر ، فما كل هذا الضجيج ؟

وما من شك في ان سولجنتسين (بعد سذاجته الاولى التيجعلته يسجل افكاره بالكتابة في رسائل ويوميات) فطن الى ذلك كلهمبكرا، عندما ارتكب خطاه الكبير الثاني ، ودخل في اول تجربة له واول تعامل مباشر مع القوة التي قضى عليه بحكم اختياره ان يكون كاتبا وشريفا ، ان يظل ابدا في موقف المعارضة والمناوأة لها . ونعني بذلك تجربة نشر روايته الاولى : « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش » التي كتبها (وما اصدق التعبير هذه المرة) بدم قلبه كما يقال : فاذا بها تستخدم كمجرد منشور دعائي مساعد في حملة ضد زعيم سابق اقتضت مصلحة زعيم لاحق ان يجرده من هالتهالتي كان قد شارك في صنعها . يقول الكاتب :« وخلال تلك الشهور (التي اعقبت نشر الرواية تحت جناح خروشتشوف) بدا لي اني قد ارتكبت خطا لا يغتفر بالكشف عن عملي قبل الاوان ، واني - نتيجة لذلك - لن استطيع ان اتم ما كنت قد عقدت العزم عليه .. والحقيقة انه بدا لي ان هذا الخروج الى العراء عمل محفوف بالمهالك قد يؤدي الى ضياع مخطوطاتي، بل وقد يؤدي الى هلاكي شخصيا (١٢) . فهو يقول ضمنا انه تعاون مع الخصم وكشف نفسه وان ذلك قد يفضي الى هلاكه .

* * *

في بداية ديسمبر من عام ١٩٦٢ ذهب خروشتشوف ليفتتح معرضا للفن السوفيتي المعاصر ، فجال في المعرض جولة ، ثم توقف وقد احتقن وجهه غضبا وقال : « ما هذا ؟ هؤلاء الناس يصورون بذيل حمار ؟ » وبعدها اعطى موافقته ، وبارك ، حملة (او بالتعبير الصيني ، مقدمات ثورة ثقافية محدودة) كانت تنتظر اشارة مهما صغرت لتنطلق من عقالها ، ضد المجددين والمجربين من كتاب الاتحاد السوفيتي وفنانية التشكيليين الذين ضلوا عن سراط الاشتراكية الواقعية المستقيم . لكنه تحفظ ، بل دافع ، فيما يتعلق باثنين او ثلاثة من اولئك الكتاب والفنانين : سولجنتسين ، والشاعر يفتوشنكو، ومصور .

ولا تبلغ السذاجة باحد ، فيما نظن ، ان يتصور ان الرجل فعل ذلك انطلاقا من موقف جمالي او قناعة نقدية ما . ولنقرأ قيمة سولجنتسين ويفتوشنكو بالنسبة اليه فيما كتبه بالغازيتة الادبية في ١٢ مارس ١٩٦٣ ، اي بعد حكاية ذيل الحمار بثلاث شهور :

« (المشاهد) ان الكتاب والفنانين اخذوا ، في السنواتالاخيرة، يركزون تركيزا خاصا على ذلك الفصل من حياة المجتمع السوفيتي الذي ارتبط بعبادة شخص ستالين . وذلك تركيز منطقي وله ما يبرره.

(١٢) سجل وثائقي عن سولجنتسين ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٢٧ .

ولقد تمخض الاهتمام بتلك الفترة عن ظهور اعمال تعكس بصدق - انطلاقا من موقف الحزب - الواقع السوفيتي كما كان خلال تلك السنوات . والمرء مستطيع ان يضرب المثل على ذلك برواية الكسندر سولجنتسين :« يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش »» وبعض اشعار يفتوشكنو ، ولوحة المصور جريجوري شوخاري « السموات العافية ».

« ان الحزب يمنح بركته وتاييده للاعمال الفنية الخلاقة الصادقة بحق ، مهما كانت السلبيات التي تتناولها تلك الاعمال وتخوض فيها ، ما دامت تساعد شعبنا فيما هو جاهد فيه من بناء المجتمع الجديد ، وتزيد قوى الشعب صلابة وتصميما وتزيد تلاحمها معا » .

تلك كلبية السلطة . تحلل الحرام وتعود فتحرمه . هليختلف « ارخبيل المعتقلات » في شيء عن « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش»؟ نعم ، يختلف . « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش » كان يشهر بستالين في وقت تصادف ان كان ذلك التشهير بستالين فيه امرا مرغوبا. واما الان ، فيمن يشهر سولجنتسين وهو ينشر « ارخبيل المعتقلات » في الغرب ؟

ولنلق بسمعنا الى خاتمة ذلك العمل الذي قرظه خروشتشوف وضرب به مثلا :

« والان ، الى تلك القطعة من السجق . الى الفم راسا . دع اسنانك تغوص فيها . الطعم اللحيم . مذاق العصارة اللحمية . شيء لا يوصف . ها هي تنزل . تنزلق . الى بطنك .
ذهبت .

وعندها قرر شوخوف (بطل القصة) ان يحتفظ بالبقية الى الغد ، ليلتذ بها ، قبل طابور الصباح .

ودفن رأسه في البطانية النحيلة الرثة التي لم تغسل ،وقد بات الان اصم لا يسمع ضجيج الانفار في النصف الاخر من العنبر وهم يستعدون لان يعدهم الحراس .

واستسلم شوخوف للنوم وهو في بلهنية من القناعة الكاملة والرضى . لقد حالفه الحظ اكثر من مرة في ذلك اليوم : فلم يلقوا به في الزنزانات ، ولم يبعثوا بفرقته للعمل في العراء، وقد سرق بعضا من الحساء وقت الغداء ،ولم يسرقه قائد المجموعة فيما اعطاه اياه من نقط ، وقد قام ببناء حائط واستمتع ببنائه ، وقد هرب تلك القطعة من سلاح المنشار ، وقد كسب في لعبة قمار ، وقد اشترى ذلك الطباق ، ولم يمرض ، ولم يمت ، بل عبر بذلك اليوم حيا وسالما .

يوم بغير سحابة قاتمة . يوم كاد يكون سعيدا .

وفي مدة عقوبته ثلاثة آلاف وستمائة وخمسون يوما اخرى كهذا اليوم » .

* * *

تكررت الاخطاء من الجانبين اذن وتلاحقت . ويبدو ان كلا الطرفين اخطأ تقدير امكانيات الاخر . فاقدام خروشتشوف على استخدام « ايفان دنيزوفيتش » كان خطا - من وجهة نظر النظام - لا يقل خطرا عن الخطأ غير المقصود الذي ادى الى عدم اكتشاف حقيقة سولجنتسين في الوقت المناسب ، وتركه - نتيجة لذلك - حيا وحرا ليتعلم ، ويتم تعليمه ، ويكتب ، بل وتركه يدخل المعتقل ويخرج منه حيا . فرغم ان ذلك التحالف المؤقت بين القوتين (الكاتب والنظام) في سبيل مصلحة عابرة للنظام ، بدا في حينه كمجرد نقلة صغيرة جانبية على رقعة الشطرنج كما قلنا ، فما من شك في انه فتح الطريق امام سلسلة من العواقب الوخيمة وردود الفعل الخطرة لم تنته بعد . فلولا نشر ايفان دنيزوفيتش منذا الذي كان سيسمع بسولجنتسين ؟ فوق ان سابقة اجتراء كاتب على النظام ومهاجمته بالصورة التي هاجمه سولجنتسين بها في « ايفان دنيزوفيتش » قد

وجدت ، وترسخت ، ولم يعد هناك ما يلغيها .ولقد اثبت النظام بسماحه بنشر الرواية انه من الممكن فعلا ان يقع ذلك الهجوم المدمر على عهد من عهوده من جانب الخصم التقليدي : الكاتب المتمرد . ولقد تطور الهجوم على ستالين في تلك الرواية الاولى الى هجوم على النظام كله ، ماضيه وحاضره ومستقبله ،بل وعلى المذهب كله ،في بقية اعمال الكاتب .

ولكي نلم بابعاد الصورة ونقف على جدية ما وصفناه بالاخطاء،هنا، نلقي بسمعنا الى خروشتشوف ذاته وهو يقول :

« أن الأعمال الابداعية ، خاصة الاعمال الادبية التي يبدعها الكتاب ، تميل الى التدخل في المجال السياسي لان العملية الفنية القائمة على تحليل العلاقات المتبادلة بين الناس وبعضهم بعضا،وبوجه خاص تلك العلاقات القائمة بين اولئك الذين في السلطة ، منجانب وبين الشعب العامل ، من جانب اخر ، تلك العملية تشكل جزءا لا يتجزأ من الاعمال الادبية الخلاقة .وبذا فان الكتاب يخوضون باستمرار في قضايا فلسفية وايديولوجية يرى اي حزب حاكم ، بما في ذلك الحزب الشيوعي السوفيتي ، انها من شانه وحده ،بل حكر عليه وحده ، ومن اختصاصه لا من اختصاص الكتاب .والواقع ان الاجراءات الادارية (التي تتخذها السلطة او تتخذ لحسابها من جانب الهيئات المعاونة) في مجال التعامل مع العقول المبدعة الخلاقة تكون دائما مدمرة للغاية وغير تقدمية بالمرة ».(١٣).

* * *

الرفض والغضب :

لقد كان من المحتمل ان تلحق « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش»، بين يدي كاتب اخر ، « بمحاكمة » كافكا .فانشغالات الاثنين واحدة: ما الذي يفعله بالفرد مجتمع القرن العشرين ؟ اولا ان كافكا كان مهتما بالفرد الانساني على اطلاقه ، وسولجنتسين مهتم بالفرد الروسي والاوكراني الان ، في ظل الماركسية . ولولا ان سولجنتسين من طينة اخرى مختلفة تماما عن طينة كافكا المرهفة العصابية المرتاعة .ففي مواضع كثيرة يعيد سولجنتسين الى الذهن صورة تولستوي الذي كان من فرط الايمان راسخا لا يزعزعه ولا يشككه في رؤاه شيء . ولا نعني هنا رسوخ الشجاعة أو البطولة . وانما نعني الرسوخ في الحياة ذاتها (ملونة ومعجونة ـ بطبيعة الحال ،بماء العقيدة المقدس) التشبث بتربتها ، بكل ما فيها من طيب وخبث واحجار ووحول واشواك واشياء ميتة وعظام نخرة تحت القشرة الرقيقة الهشة من الخضرة والزهور . فسولجنتسين يقبل الحياة بشروطها ، وان كان لا مانع لديه احيانا من املاء بعض شروط عقائدية او مثالية .والذي يبدو من اهتماماته ان كل ما يطلبه هو ان يترك الناس ليعيشوا احرارا، حرية منضبطة ، في رحاب عالم يريد له ان يعود الى احضان الطبيعة ، ولكن مسلحا بالدين . ولقد قلنا ان الرجل تنطق كتاباته بالغضب ، وضيعة الوهم ، ونفاد الصبر . اصغ اليه وهو يقول في ختام موكب عيد الفصح :

« هذه الملايين من البشر التي ربيناها ونشاناها هذه النشاة، ما الذي سيحدث لها ؟ الى اين اودت بنا الجهود المستنيرةوالرؤى الملهمة للمفكرين العظام ؟ اي خير يمكن ان نتوقعه من اجيالنا المقبلة ؟

الحقيقة ان هذه الملايين ستستدير يوما وتطانا باقدامها . اما اولئك الذين دفعوا بها الى هذه الدرب، فما الذي سيحدث لهم؟ ابدا . ستستدير هذه الملايين وتطأهم بأقدامها هم ايضا » . (١٤).

الكلام واضح ، فيما نظن ؟ الملايين قد حوّلت الى سائمة خطرة ، ولسوف تستدير فتطأ الجميع ، وربما بعضها بعضا ايضا ، بأقدامها . ومن المسئول عن هذا ؟ الرؤى الملهمة والافكار العظيمة . الماركسية . الا تحس نبض الغضب ؟ الا تسمع زفرة الحنق ونفاد الصبر؟

ولقد رسخت ، بفضل هذا كله ، وبفضل ما كتبه ويكتبه نقاد الغرب ودعاته عن سولجنتسين ، رسخت للرجل صورة ، ورسخت حول رأسه هالة ، بوصفه المناضل الاعظم دفاعا عن الحرية والقيم الاخلاقية العليا في وجه كلية النظم الشمولية وضراوتها وتحكمها في رقاب العباد . فهل الرجل كذلك حقا ؟ وهل تلك هي قضيته ؟ تلك في اعتقادنا المسالة الاساسية في قضية هذا الكاتب . لانه ان كان كذلك حقا ، وان كانت الاستماتة الى ما يقرب من الاستشهاد دفاعا عن الحرية والقيم الاخلاقية العليا ، واولها العدل ، جوهر موقفه ، فكل ما فعاله ويفعله مبرر ويستحق تلك الهالة التي البسته صحافة الغرب ولجنة جائزة نوبل اياها واكثر . اما اذا لم يكن ، ولم تكن تلك قضيته ، فاي شيء يكون الرجل ؟

* * *

يبدو الجهاز اللاشخصي ، المشئوم ، الباعث على الرعب ،الذي لا يرحم ولا يكترث ، والذي يحرك الناس والاحداث وصنوف المحق والوان الشقاء في « يوم من حياة ايفان دنيزوفيتش » اشبه بروبوت ضخم ، غير مرئي ، مبرمج ، لا يحيد عن التعليمات التي لقنت لدوراته الاليكترونية ، ذاهبا الى الغاية التي صنع من اجلها ولا غاية غيرها ، وهي تحويل كل اولئك الناس الذين القى بهم بين فكيه، الى نفاية انسانية ممضوغة ، اسراب من الموتى الاحياء . ولا نقول قطعان من الحيوانات ، لان الحيوانات مظلومة معنا دائما ونحن نتعالى عليها بينما هي تمتاز عنا بما فيها من عنف وخفة وحياة ونبل خاص بها . اما تلك الكائنات الرخوة الزاحفة التي ينتهي امرها الى ان يتركز كل وجودها في كسرة خبز اضافية تسرقها وتخفيها تحت اسمالها لتاكلها وتلتذ بها عندما تنفرد بانفسها ليلا ، حتى تتمكن من العيش يوما آخر ، فنوع اخر جديد ، في سلسلة التطور ، اوجدته ، كما يصوره لنا سولجنتسين ، الرؤى الملهمة العظيمة في مسيرتها الظافرة نحو الغد المشرق والفردوس الارضي .

ولقد يساعدنا على الفهم اكثر ان نقرأ ، في « ارخبيلالمعتقلات» ما يقوله السيد البيروقراطي المسئول في احد تلك المعتقلات التي تكاثرت وازدهرت في ذلك الارخبيل الرهيب لتستوعب وراء اسوارها عددا يتراوح بين ١٠ و١٥ مليونا من البشر . يقول السيد المسئول لاحد السجناء ، شارحا له المفهوم القضائي الذي يجري تحويله بموجبه ، كالملايين من امثاله ، من شخص الى شيء :« اسمع يا صاح. ان كان من الضروري ان تعدم رميا بالرصاص ، فستعدم رميا بالرصاص ، مهما كان من امرك ، وايا كانت الظروف .حتى وان كنت بريئا . اما اذا كان هناك ما يدعو الى اكتشاف براءتك ، حتى وان كنت مذنبا ، فانك ستطلى بطبقة من الطلاء تخفي كل مساوئك ، وتجعلك بريئا . هذا كل ما في الامر » .

اما ضيعة الوهم ، فلنقرأ في شانها معا هذه القصيدة من الشعر المنثور التي اسماها سولجنتسين « بحيرة سجدن » :(١٥).

---

(13) Khruschev Memoirs , Vol . 2 , to be publisched in late summer by André Deutsch . Excerpts publisched in advance by « The Times » May Ist , 1974 .

(14) Solzhenitsyn : Stories and Prose Pome - Penguin Lodon 1973 P . 108

(١٥) المرجع السابق : ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

« لا احد يكتب عن هذه البحيرة ، الكل يتحدث عنها همسا
كما لو كانت قلعة غيلان مسحورة سدّت كل الطرق المؤدية اليها
على كل طريق علّقت لافتة لا سبيل الى تجاهلها
كتب عليها سطر واحد، بسيط ، فظ في صراحته، لا التواء فيه يقول:
كل حي، حيوانا كان ام انسانا ، متى واجه هذه اللافتة ، عليه ان
يعود ادراجه .
هناك قوة ارضية ما ، وضعتها هناك ، تلك اللافتة ،
والى ما ورائها لا يستطيع ان يمر احد : راكبا كان ، ماشيا ،
زاحفا ، او طائرا .
حراس يحملون سيوفا وغدارات يكمنون متربصين قرب الطريق
في اجمة الصنوبر المجاورة .
وبوسعك ان تلف في الغابة الصامتة وتدور
بحثا عن طريق الى البحيرة
لكنك لن تجد طريقا ، ولن تجد من تسأله
لانه لم يعد هناك من يذهب الى تلك الغابة .
لقد فروا جميعا ، والخوف في اعقابهم .
وفرصتك الوحيدة لبلوغ البحيرة
سوف تأتيك ذات اصيل ، والمطر يهطل فيخفيك ، على درب الماشية
وحاديك اليها سيكون الرنين المكتوم لجرس معلق في عنق بقرة.
بحيرة خبيئة ، في غابة خبيئة
ان كان هناك عالم وراء الغابة فانه مجهول ، وغير مرئي
وان كان له وجود ، فانه لا مكان له هنا .
ها هنا مكان يمكن ان يحط المرء فيه رحاله الى الابد .
ها هنا مكان يستطيع المرء ان يعيش فيه على وفاق مع العناصر، ويلذهم .
لكن ذلك لا يمكن ان يكون :
فأمير فاسد شرير أحول العينين
قد ادعى ملكية البحيرة لنفسه ، واخذها .
ها هنا الان بيته ، وها هنا مكان استحمامه
وها هنا تأتي سلالة الشر التي انجبها لتستمتع بصيد السمك
وصيد البط بالرصاص من قاربه
ترى العين اولا هبة من دخان ازرق فوق البحيرة
ثم ـ بعد لحظة ـ تسمع الاذن صوت الرصاصة .
وبعيدا ، فيما وراء الغابة ، يعرق الناس ويكدحون
بينما كل الطرق المفضية الى هذا المكان مسدودة في وجوههم
لئلا يأتوا فتطفلوا هنا
فالسمك والصيد يربى هنا لمتعة الامير الشرير وحده
هنا اثار نار كان قد اوقدها شخص ما ثم مضى
لكنها اطفئت وطوردت من هنا
البحيرة الحبيبة المهجورة .. ارض بلادي »

وقد لا يكون هذا شعرا جيدا ، وقد لا تكون فيه صنعة فنية حاذقة . فالشاعر (ان صح ان سولجنتسين فيه شعر) لا يجد حرجا ـ في ختام القصيدة بوجه خاص ـ من ان يضع تحت معناها خطا فيقول : « البحيرة الحبيبة المهجورة .. ارض بلادي » . اي اصح ايها القارىء . هذا الذي قلته كله عن روسيا . فالرجل ، كما وصفه زخاروف « داعية » Publicist ما في ذلك شك . فهو مهتم بالدعوة لافكاره والدفاع عما يراه ضروريا وحيويا لاعادة تعمير البحيرة المهجورة، وطرد الغيلان من القلعة ، ورد الغابة وما فيها الى اصحابها الروس والاوكرانيين الذين يعرقون ويكدحون خارج الغابة ، اكثر من اهتمامه بمسائل تكون الفن اضمارا لا اجهارا وما الى ذلك . وهو واضع نصب عينيه ، سواء في مناظراته ومطارحاته او في اعماله الابداعية ، هدفا اساسيا هو توصيل رسالته الفكرية الى القارىء باكثر الطرق يقينا .

وهو يفعل ذلك ببساطة ، ودون ان يطرف له جفن ، المرة تلو المرة . في موكب عيد الفصح يظل يصف شخوصه وخلفيتها وصفا تسجيليا مباشرا لاكثر من نصف القصة ، ثم ـ فجأة ـ يقول : « وهذه هي بداية الصورة التي اريد ان ارسمها ، ان استطعت : رعب رجل الدين وخوفه من ان يحدق به بناة المجتمع الجديد ، ويثبوا فوقه ، فيشبعوه ضربا » . (١٦)

فهل يسير سولجنتسين في ظلال الواقعية الاشتراكية الوارفة اذن ؟ اطلاقا . فهو ابعد ما يكون عنها . وهو رغم انشغاله بالمناظرة والدعوة ، ورغم عدم اكتراثه الواضح لكثير من القواعد الجمالية ، يتوصل بطريقة ما الى اعادة دم الحياة للكتابة الابداعية الروسية ، ويردها الى تراثها القديم باذخ الثراء ، من خلال الالتزام ـ ببساطة بالغة ـ بواقعية الصدق لا اكثر . ولعل الاسطر التالية تفصح عن طبيعة تلك الواقعية التي تتجاوز بصدقها ، وحرارة ايمانها (مهما اختلفنا مع ذلك الايمان احيانا) ، وبساطتها ، كل تصنعات وتظاهرات الواقعية الاشتراكية ، ذاهبة الى النبع الحي لهذا الادب العظيم :

« يقول لنا العارفون بأصول الفن ان الفنان لا يجب ان يصور كل شيء على ما هو عليه ، اي لا يجب ان ينسخه . ويقولون ان التصوير الفوتوغرافي الملون يفعل ذلك وبجيده ، واننا ـ باستخدام الخطوط والاشكال ـ ينبغي ان نوصل جوهر الشيء لا الشيء نفسه . وانا لا ارى كيف يستطيع التصوير الفوتوغرافي الملون ان يلتقط ما هو ذو مغزى ... » (١٧)

سولجنتسين وفجوة الادب السوفيتي :

ان كان سولجنتسين ، بتدينه العميق ، وتطلعه الى مجتمع (قديم بعض الشيء) يلعب فيه الدين وخشية الله دورا رئيسيا ، وان كان ، بمكتسباته الاخلاقية ، وتمسكه بان الصدق نبع كل جمال ، والقيمة الاخلاقية جوهر الفن ، ان كان بذلك كله يذكرنا بمواطنه تولستوي ، وان كان ـ بانشغاله العميق بصنوف الرعب والمحق والاذلال التي تطبق على الفرد الانساني ، بشكل حاد ولحوح ومتكرر ، في هذا العصر ـ يذكرنا بكافكا (وكل ذلك مع الفارق الكبير : فارق العصر ، والبيئة ، والخبرة الحياتية والثقافية ، والمزاج الشخصي ، والقناعات الشخصية ايضا) ، ان كان سولجنتسين يذكرنا بهذا او بذاك ، او بكليهما معا ، في بعض جوانب بعينها من كتاباته ، وبعض ملامح بعينها في نظرته الى الامور ، فانه يذكرنا بكاتبين انجليزيين من كتاب الثلث الاول من هذا القرن (باعتبار ان الفترة التي اكتمل فيها نضجهما الفكري وتحددت مواقفهما كانت في فترة ما بين الحربين) ونعني بهما : كاتب اليوتوبيا ـ الضد جورج اورل (وقد تكون الارض المشتركة بين سولجنتسين وبينه ضيعة الوهم في امكان تحقق حلم اليوتوبيا) ، ودافيد هربرت لورنس (وقد تكون الارض المشتركة بين سولجنتسين وبينه ارض الرفض ، والغضب ، وخيبة الامل ، ونفاد الصبر ، وارض الكراهية العميقة لطريقة الحياة التي اوجدها العصر الصناعي .)

والواقع ان قدرا كبيرا من اهمية سولجنتسين (على المستوى الادبي) نابع من كونه يمثل ما يبدو كالتئام طال انتظاره للفجوة الفاغرة التي لا سبيل الى تجاهلها بين الادب السوفيتي وسائر آداب البلدان المتقدمة صناعيا . والمشكلة ان الاتحاد السوفيتي الذي يقف ـ على المستوى التقني والعلمي ـ على قدم مساواة مع الغرب المتقدم ان لم يسبق كثيرا من بلدان ذلك الغرب ، يتخلف عن كثرة من تلك البلدان تخلفا ملحوظا في فنون بعينها . لانه ، اذا ما استبعدنا فنونا جماعية (كالباليه ، والسيرك) حقق فيها الاتحاد السوفيتي وثبات واسعة

(١٦) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(١٧) سولجنتسين : قصص وقصائد من الشعر المنثور ، ص ١٠٤ .

الى الامام ، اين يقف وطن دستويفسكي ، وتشيكوف ، وبوشكين ، وجوجول ، وتولستوي ، من فرنسا مثلا او غيرها من بلدان الغرب المتقدم ، في مجال الابداع الادبي ؟ ولعل هناك مواهب مدفونة بحكم الاجراءات الادارية التي حدثنا عنها خروشتشوف في مذكراته . بل وما من شك في ان تلك الاجراءات – بالاضافة الى جمود وضيق افق وتعصب مدرسة النقد الارثوذكسية (وقد اكتوينا نحن بنارها هنا في العالم العربي امدا طويلا على ايدي المقلدين الكبار) – ما من شك في ان تلك الاجراءات الادارية والنقدية تحمل قدرا كبيرا من وزر ذلك التخلف الادبي ودفن المواهب او قتلها . ولا ننسى ان من التهم التي ارسل سولجنتسين الى سيبريا بسببها انه كتب شيئا كهذا في مذكراته ومكاتباته الخاصة . والنتيجة ؟ النتيجة ان سولجنتسين يبدو الان كما لو كان بداية عصر ادبي جديد انتهت منه اوربا الغربية قبل ثلاثين عاما ويبدأه الادب السوفيتي بالكاد ، وباوجاع مخاض لا توصف: باسترناك، وسلالة الادباء والمثقفين المنشقين ، وسولجنتسين .

ومن اوجه عديدة يذكرنا سولجنتسين – باهتماماته وانشغالاته الفكرية والاخلاقية – بكتاب ككتاب ما بين الحربين الذين اشرنا اليهم ، باتت اعمالهم والقضايا التي انشغلوا بها ، الان ، من كلاسيكيات الادب الاوربي الحديث . وفي نفس الوقت (وذلك من تناقضاته الملفتة للنظر) يمثل سولجنتسين ردة فكرية الى ما قبل ليبرالية اولئك الكتاب الذين عاصروا بدايات الازمة الاوربية ابان الحرب الاهلية الاسبانية وعبروا بليبراليتهم الوردية تلك (كما عرفت آنئذ) عن انقسام عالمهم الذي كان وشيكا . فسولجنتسين الذي يبدو منغمسا حتى قمة الرأس فيما كان كتاب كأرول او جيد او كويستلر منغمسين فيه منذ ثلاثين سنة واكثر ، يفصح في بعض اوجه فكره واتجاهاته التي تبدو كيبلينية (نسبة الى كيبلنج) بعض الشيء عن ردة على ذلك الموقف الليبرالي الوردي (اي الليبرالي المشرب بشيء من التقدمية) تمثل تيارا يزداد قوة في الفكر الغربي الان ، ويعبر عن ذلك التيار الشوفيني المنسلخ عن الانسانية كفكرة عالمية بافضل واجرا مما يمثله اشهر كتاب الغرب المعاصرين ، ربما لان اولئك الكتاب ما زالوا يحسون بقدر من التورع والخشية والتردد ازاء المغزى القبيح الذي ينطوي عليه الارتداد الى ذلك الموقف الذي ينادي به سولجنتسين . ولقد يكون ذلك مسئولا بعض الشيء ، ومن بعض الوجوه ، عن تحمس اجهزة الاعلام الغربية الزائد لسولجنتسين .

جورج أرول :

وتحاذي سولجنتسين مع ارول (رغم ملامح الردة هذه) له اكثر من وجه ، وله وشيجة رحم بالقرابة الفكرية مع كافكا (في مجال انشغالاته ، كما قلنا ، لا في مجال استجلائه لابعاد تلك الانشغالات في رؤيته الفنية) . فالطابع السياسي الغالب على كتابات ارول ليس في حاجة الى من يشير الى الخطوط الموازية له في كتابات سولجنتسين . لكن الاهم من ذلك ، التماثل بين موقفي الادانة اللذين يتخذهما الاثنان – على ما بين الكاتبين من فارق زمني واسع وتباين في الخلفية الثقافية – من العالم الغربي بوجه عام ، والحضارة الصناعية بوجه خاص .

فانت اذ تقرأ لسولجنتسين رسالته الشهيرة الى الزعماء السوفيت ، وتسمعه قائلا : « ان الهزال النكبائي الذي اصاب العالم الغربي ، والحضارة الغربية ككل ، نتج عن ازمة تاريخية ، نفسية ، وخلقية ، فعلت فعلها في الثقافة الغربية برمتها ، والنظرة الغربية الى العالم ، اللتين خلقهما عصر النهضة ، » (١٨) فكأنك تقرأ ارول حرفا بحرف .

وانت ، من جانب اخر ، اذ تقرأ اسطر كهذه من قصة « بيت ماترونا » لسولجنتسين ، تكاد تحس انك تمر بتجربة déja - vu (★) ادبية غربية ، بل وقد تحس انك تقرأ من « الطريق الى رصيف فيجان»، او « الطفو لاستنشاق الهواء » ، لارول ، او « ابناء وعشاق » للورنس :

« كانت مدخنة احد المصانع تسكب فوق القرية كلها دخانا اسود ، وخط السكة الحديد الضيق يتلوى ، فيشطر القرية شطرين، لتقتحمها قاطرات صغيرة ، تزفر هي الاخرى سحبا كثيفة من الدخان ، وتطلق صفيرا نحيلا ثاقبا ، وهي تجر وراءها عربات محملة بالخث وقوالب الفحم الحجري . وفوق هذا كله صح ما توقعته من وجود جهاز للراديو والاسطوانات يعربد بالموسيقى الصاخبة طيلة المساء ، في النادي القميء ، ووجود السكارى الذين يخطئهم العد ، منطوحين في الطرقات ، تعلو اصواتهم بالشجار والسباب ، بين الحين والحين ، ويطعنون بعضهم بعضا بالسكاكين . وهذا هو المكان الذي جاء بي اليه حلم ظل يراودني في العثور على ركن هادىء قصي ما من روسيا استطيع العيش فيه . (١٩)

والكاتب هنا ، كما هو واضح ، يروي تجربته الشخصية . فكل ما يكتب اعادة خلق لوقائع واحداث وشخوص من واقع سيرته الذاتية، بغير كبير تحريف . وهذه القرية التي يصفها كما لو كان ارول او لورنس هما اللذان يصفان قرية من قرى « الميدلاندز » في بريطانيا ، كان قد ارسل اليها – بناء على طلبه – بعد عودته من المنفى في كازاخستان ، ليعمل مدرسا للرياضة بمدرستها الابتدائية ، متصورا – كما يقول – انه سيجد فيها مستقرا . ولكن : « لقد كنت في منفاي – بالاقل – اعيش في كوخ من الطين ، على حافة الصحراء ، فكانت الريح تهب علي بالليل نظيفة ندية ، والسماء تخيم فوقي صافية شاسعة ترصعها النجوم . والان آتي الى هذه القرية ؟ » (٢٠)

هذا جانب من جوانب الشبه بأرول . ولكن اسمع لسولجنتسين (وذلك جانب اهم) وهو يقول : « ان التغذية اليومية الاجبارية الشاملة بالاكاذيب باتت اشد اوجه العيش في وطننا تعذيبا للنفس واكثرها فظاعة ، بل هي أسوأ من كل صنوف شقائنا المادية ، واعتى من اي افتقار الى الحريات المدنية . فكل هذه الترسانات من الاكاذيب (وهي ليست ضرورية على الاطلاق لاستقرارنا كدولة) تفرض كنوع من الاتاوة علينا ، ندفعها لحساب ايديولوجية بعينها ، عملا على تثبيت الاحداث ، دقها دقا بالمسامير ، واحكام وثاقها الى تلك الايديولوجية الميتة ، الضارية ، حادة المخالب .» (٢١) اليست هذه بعينها تصورات ارول الكابوسية عن وزارة الحب ، والكذب هو الصدق ، والحرب هي السلام ، في ايديولوجية ١٩٨٤ ؟

نعم ، هناك اوجه شبه عديدة بين سولجنتسين وارول ، وهي التي تجعل تلك الجوانب الاخرى الشوفينية اكثر ايلاما للنفس ومدعاة للدهشة . فما دام الرجل يعرف كل هذا ، وما دام حدسه وتجربته المباشرة قد اوقفاه على هذه الاوجه من القبح في الحياة المعاصرة ، كيف يتأتى ان يطلب الخلاص لاناس دون اناس ويقول دعوا الاخرين

(١٨) رسالة .. ص ١٨

(★) déja - vu من الظواهر النفسية المعروفة . وتطلق على حالة نفسية يخيل فيها للمرء بدرجة تقرب من اليقين ، اذ يزور مكانا بعينه ، او يقابل شخصا ما ، او يمر بتجربة معينة ، انه سبق ان زار ذلك المكان ، او قابل ذلك الشخص ، او مر بتلك التجربة من قبل ، دون ان يدري اين ومتى وفي اية ظروف حدث ذلك .

(١٩) سولجنتسين : قصص وقصائد من الشعر المنثور ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١١ .

(٢٠) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٢١) رسالة .. ص ٤٧ .

لمصيرهم ؟ ربما لان اولئك الاخرين الوانهم داكنة ؟ ربما لانهم لا يدينـون بالمسيحية ؟ ولكن شعوب اميركا اللاتينية كلها تدين بالمسيحية. المسألة عنصرية اذن ؟ قصر نظر ؟ ام هي مسألة عدم فهم ؟

والحقيقة ان تلك الاوجه من الشبه تبدو غير عميقة ، ولا تـذهب الى ما تحت الجلد بكثير . فالكاتبان قد يختلفان الى درجة التضاد ، على المستوى الاعمق ، رغم ان منطلقهما واحد : اليقين الاخلاقي بحق الفرد في شيئين اساسيين لا تستقيم له حياة غير مشوهة بدونهما : الحرية الفردية ، والمسئولية . وجنبا الى جنب مع ذلك المنطلـق ، وبالضرورة ، يفصح الكاتبان ، وبنفس القوة ، والحيرة ، والارتياب ، عن مقتهما للدولة ، على الافل ، في شكلها الذي يناصبانه العـداء . ونقول الحيرة والارتياب لانه لا هذا ولا ذاك استطاع التوصل الى تصور ما يمكن ان يكون بديلا لما يمقته ويناصبه العداء . وفيما يخص اورول ، فان كل من قرأ كابوسيته ١٩٨٤ ، التي باتت مـن كلاسيكيات الادب السياسي الحديث ، يعرف جيدا عم نتكلم . اما فيما يخص سولجنتسين، فالامر مربك ومحير حقا ، لانه ـ في النهاية ـ يدعو الى دولة طاغوتية، قد تكون لاهوتية ايضا . ولهذا فانه لا يبدو غريبا ان يتشابه الكاتبـان خارجا ويختلفا باطنا ، الى حد التضاد . وبايجاز ، هو خلاف بـين التشاؤم والتفاؤل . فصاحبنا سولجنتسين مؤمن ، ومتفائل بالتبعية ، بينما اورول ، المثقف الغربي المتشكك ، المغموس حتى قمة الرأس فـي احباطات الثقافة الغربية وخيبات املها ، لا هو مؤمن ، ولا هو متفائل، فيما يخص الفرد ومستقبله او احتمالات خروجه ، من موجة المـد الشمولية العاتية التي تجتاح العصر ، حيا ، وكاملا ، وانسانا . انت تعرف ما حدث لبطله بعد ان خرج من دهاليز وزارة الحب في ١٩٨٤. بل ولقد يبدو مصير ذلك البطل كتعبير روائي عن خضوع اورول وامتثاله للثقافة التي ظل ، من اول سطر الى اخر سطر كتبه ، متشككا فيها وفي قيمها ، مناوئا لها ، متمردا ومنشقا عليها ، وفي الوقت ذاته : منسحرا بها ، يائسا من نجاة الفرد الذي دافع عنه ضدها ، طيلة الوقت ، بكل تلك الحرارة ، وكل تلك القوة ، يائسا من بقائه . ومن وجهـة نظر سولجنتسين يمكنك ان تعلق على ذلك الفصام فتقول : « طبعا ! فاورول ليس الا تجسدا اخر لزوال العالم الغربي وانحلاله وتدهوره التكـالي وافتقار ثقافته الى مقومات البقاء والاستمرار . » فسولجنتسين بـدأ مع اورول (فكريا) من نفس المنطلق ، لكنه ، على العكس مـن اورول وجيد وفيشر وكوستلر وامثالهم ، احتفظ بايمانه ، ونفخ في جذوتـه من نبع ايمان اخر لا مهرب في ظله من التفاؤل ، وكل ما نحسه فـي كتابات سولجنتسين من غضب ، وحنق ، ونفاد صبر ، وضيعة وهم ، ليس الا صيحة الضنى التي يطلقها المؤمن محتجا اذ يخذله كهنته . وهل كان تولستوي ملحدا عندما تمرد على الكنيسة وهاجمها ؟ على العكس . كـان ايمانه ذاتـه نبعا لا ينضب لغضبه ونقمتـه ومناوأته . وكذلـك سولجنتسين . فهو ليس كافرا بنظم القهر والقوة والتسلط . ليس كافرا بالعقيدة القائلة بان الناس ، عامة الناس يجب ان يساقـوا ويتحكم في حياتهم نسق ما قائم على نوع من القهر . وهو فـي ذلـك عكس اورول ومثقفي ما بين الحربين الاوربيين . وهو لذلك يستطيع ان يرتد الى ما قبلهم ، ويستقر عند رؤية كيبلينية بعض الشيء ، ومرتدة.

د. هـ. لورنس :

وذلك وضع ينبغي الا يغيب عن الذهن كلما استحضرت بعض كتابات سولجنتسين في اذهاننا كتابات الغرب المنشقين . خذ مثلا ديفيد هربرت لورنس . فسولجنتسين كاره للعيش مثل هذا الاخير تماما فـي ظـل وثن التقدم والحضارة الصناعية ، خاصة وهو من اهل بلد كالاتحـاد السوفيتي يركز تركيزا خاصا على التقدم المادي والتقني . وكراهـة سولجنتسين العميقة لا يعدلها الا مقت لورنس للنظام الصناعي برمته. وكتابات سولجنتسين حافلة بلحظات شبه رومانسية يتغنى فيها بحيـاة الطبيعة الخيرة الجميلة ، ويعادي حياة المجتمع الصناعي الحضري القاتلة للنفس . بل واسمع له ، بغير رومانسية ، وبغير شعر ، في رسالتـه الى زعماء الاتحاد السوفيتي : « انكم جميعا من كبر السن بحيث يمكن ان تتذكروا كيف كانت مدننا قديما : كانت مدنا جعلت ليعيش فيهـا الناس ، وتعيش فيها معهم جيادهم وكلابهم ، بل وقاطرات ترامهم ايضا. كانت مدنا انسانية وودودة ، مريحة ، تطمئن اليها النفس . كان الهواء فيها نظيفا على الدوام ، وكان من الممكن ان يكون لكل بيت فيها تقريبا حديقة جميلة » . (٢٢)

فكأنك تقرأ لورنس في « ابناء وعشاق » ، او سائر اعمالـه الابداعية والنظرية التي يتوجع فيها من القبح الذي اغـرق العصر الصناعي انجلترا فيه . وتماما كما دعا لورنس ، في النصف الاول من هذا القرن ، الى نبذ التهافت على التقدم التقني والصناعي ، وحث شعبه (والعالم كله) على العودة الى حياة الطبيعة ، وتمنى لو تعـود اليه انجلترا كما كانت قبل ان تبتلي بوثن التقدم وقبح مناجم الفحـم ومداخن المصانع ، يطلب سولجنتسين من زعماء بلاده ، والقرن العشرون يشرف على ربعه الاخير ، ان ينبذوا اللهاث وراء التقدم كما لو كان ، في ذاته ، شيئا مرغوبا فيه فوق كل شيء اخر : « ان المجتمع يجب ان يكف عن التطلع الى التقدم كما لو كان ذلك التقدم غاية للحياة . ان التقدم الذي لا ينقطع ، ولا يتوقف ، ولا يعرف حدودا ، اسطـورة سفيهة . والنمو الاقتصادي ليس غير ضروري فحسب ، بل وضار ، ومفض الى الدمار . والشيء الذي يجب ان نسعى اليه ونضعه نصب اعيننا كهدف لنا لا يجب ان يكون اقتصادا في حالة توسع دائم ، بل اقتصادا في حالة ثبات ، يتوقف النمو فيه عند درجة الصفر . (٢٣)

غير ان سولجنتسين ، وان تحازى مع لورنس في دعوتـه لنبـذ مكتسبات التقدم ، والتحرر من الحاح الحياة المعاصرة ـ في ظل الثقافة الصناعية ـ على مزيد من التصنيع ومزيد من الميكنة ومزيد من الاوتوماتية ومزيد من التقدم التقني ، ما يلبث ـ كما في حالة تحازيه مع اورول ـ ان يختلف عن لورنس اختلافا يصل الى درجة النقيض . فلورنس دعا الى وثنية بدائية يلعب فيها الجنس دورا رئيسيا ، بينمـا يرى سولجنتسين الخلاص الممكن الوحيد فيما رآه تولستوي قبلا : العـودة الى رحاب الدين .. في ظل نظام ديكتاتوري ما ، غير مخيب للامال ، وخير ، وغير محدد حتى الان ، رغم كل برامج الكاتب النظرية ، يقرن العدالة الاجتماعية (بحدود معينة) بالحياة المنضبطة التـي ينظمها الدين ، وتحكمها خشية الله .

واما وجه الشبه الحقيقي والاعمق بين الكاتبين فهو ان هذا وذاك يصدران عن حب عميق لوطنيهما ، وخيبة امل فيه لا تقل عمقا وحرارة. ولقد قلنا من قبل ان مشكلة لورنس مع انجلترا كانت اشبه بمشكلـة عاشق خدعتـه حبيبته ، او مشكلـة ابن مدله خيبت امله وخذلتـه امه . (٢٤)

★★★

ورغم ان سولجنتسين لا يتطرف الى ما تطرف اليه لورنس مـن شطحات شاعرية في ذلك المجال ، بل ويكاد يحصر خلافه وخيبـة امله في الماركسية وحدها ، والنظام الحاكم باسمها ، فما من شك ابدا في ان اسطره ناضحة بحب لورنس المحبط خائب الامل عينه . ولقد قلنا ان الرجل مثقف من مثقفي الثلاثينيات الاوربيين جاء بعد وقته بكثير ، بفضل تلك الفجوة التي امتدت من عام ١٩١٧ ، حتى مطلع الستينيات.

لندن

---

(٢٢) رسالة ص ٣٧ .

(٢٣) رسالة ص ٢٢ .

(٢٤) انظر دراستينا عنـه بكتابنـا دراسـات في الادب الاوربي المعاصر ـ بغداد ـ ١٩٧٢ .